

مكانة المرأة في الثقافات الإنسانية والمجتمعات القديمة

تاريخ الاستقبال: 2018/06/23

تاريخ القبول: 2018/06/24

أ / لمياء بوجدره / جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تبيان مكانة المرأة الاجتماعية في الثقافات الإنسانية وفي المجتمعات القديمة والتي تعد مؤشرا ظاهرا على محورية الدور النسوي في إثراء الحياة الاجتماعية من ناحية، ومواكبة رؤى تطوير المرأة من ناحية أخرى .

فالمرأة سعت من أجل تحقيق مكانتها، عملت من أجل الحصول على التحرر الاقتصادي والمشاركة في المسيرة التنموية، وهي اليوم تخوض في مجال المال والأعمال، لتثبت أنها قادرة على المشاركة في الورشات الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، التي تنقل المجتمع من مستوى التقدم، إلى مستوى التطور.

الكلمات المفتاحية: إدارة الجودة، الإدارة، التخطيط، الثقافة التنظيمية

Abstract :

This article aims to describe the social position of women in human cultures in ancient societies, which is an indicator showing the centrality of women's role in enriching social life on the one hand, and keeping up with visions of development of women on the other. They sought to achieve prestige, worked for economic emancipation and participation in the rally Center, and is today embroiled in business and financial areas that proved to be able to participate in social and cultural workshops which helps society go beyond progress towards evolution

مقدمة :

تتغير مكانة المرأة من مجتمع لآخر بتغير الأنظمة والبنى الاقتصادية والاجتماعية، حيث سادت وتسود المجتمعات درجات متباينة لمكانة المرأة، وأشكال متعددة لممارستها أدوارها في المجتمع، فقد أثر تطور المجتمعات وما أصاب بناها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من تحولات وتغيرات على أدوار المرأة ووظائفها وما تفرضه تلك الأدوار من مكانة اجتماعية، فكانت أن مارست المرأة في بعض المراحل أدوارا رئيسية مكنتها من الحصول على مكانة رفيعة في المجتمع، فدائما ما تطرح قضايا المرأة بشكل مرتبط مع قضايا الإنسان بشكل عام، كما تطرح قضايا نوعية التطور الاجتماعي ورفاهية الحياة وشروط التجدد الذاتي الاقتصادي والاجتماعي، كما أنها ترتبط بالفعل الاجتماعي بمفهومه العام والمتنوع، والمتعلق بنصف القوى البشرية داخل المجتمع ومساهمتها في التنمية . لذلك فإن موقع المرأة بهذا المنظور الشمولي يطرح معالجة سوسيولوجية

يحتاج فهم وضع المرأة ومكانتها التاريخية استعراض مختلف الثقافات والحضارات التي تبين أهمية موضوع المرأة ومكانتها داخل المجتمع.

1. المرأة عند المصريين القدماء

ارتبط اهتمام قدماء المصريين بالمرأة باهتمامهم بالنظام الأسري ودوره في توطيد ركائز المجتمع، فقد عرضوا في نثف الأدبية بفضل النظام الأسري، في دعم الحياة الاجتماعية، فكثروا في الواجبات الأسرية واتجهوا بتفكيرهم إلى ما ينبغي أن تكون عليه الأمور الأسرية، وحرصا على الاستقرار في المعاملات الإنسانية، ونبهوا إلى كثير المشاركات الوجدانية والودية الطيبة وعواطف الإيثار التي تربط الأفراد بالعالم الآخر وأشادوا بفضل العمل الإنساني واعتبروه فضيلة إنسانية.¹

واستنادا إلى تلك الركائز الأخلاقية، برزت وتأكدت أهمية دور المرأة في تحقيق المجتمع المستقر المرتبط باستقرار النظام الأسري، من خلال مشاركتهما في تحمل أعباء الحياة ومشاغلهما، فقد كانت المرأة تشارك الرجل على قدم المساواة مسؤوليات الحياة ومشاغلهما المختلفة، وتتمتع وأطفالها معه بمسرات الحياة ومباهجها، وكانت مخلصة وفية تحرص على اسعاد زوجها ومشاركته قسوة الحياة ورخائها، وتحاول أن تبدو أمامه في أكمل زينة.²

لقد حافظ المصريون القدماء على العلاقات الزوجية متينة قوية، فكان الزواج عندهم فرديا، وكانت كلمة الأخت تطلق على الزوجة لبيان سمو مكانتها وارتباطها بزوجها ودرجة حبه لها، ولكن لم تدم هذه الحال نتيجة لانتشار فوضى المحظيات والغاشيات ومما أضعف من تمارس الأسر وسار بها نحو التفكك.³

2. المرأة عند الصينيين

تحددت مكانة المرأة عند الصينيين بوضعها ضمن النظام الأسري وما حظي به من اهتمام كبير في أغلب النظريات الصينية، وفيه النظرية الكونفوشيوسية التي ترى أن الحياة الأسرية المنظمة تفرض على الأفراد نظاما اجتماعيا طبعيا يفوق دقته ورقيه ما ترمي القوانين الوضعية إلى فرضه عنوة واقتدارا، فالأسرة ذات الدعائم الفاسدة والنظم المختلفة، لا يتوفر التضامن الاجتماعي بين عناصرها ولا تستطيع أن تهيم النظام الاجتماعي المنشود، ومن ثم لا يرجى للمجتمع تقدم أو سعادة، لذلك يجب على أفراد الأسرة أن يقوموا أنفسهم وعقولهم ويتزودوا بالمعارف الإنسانية بالقدر الذي يكفل القضاء على بواعث الشهوات المردولة، ومن ثم تم تنظيم الأسرة عن طريق التطهير، والإخلاص والتضامن وطاعة الأبناء للآباء والزوجات للأزواج، تهيات البلاد من تلقاء نفسها لنظام اجتماعي يساعد

إلى حد كبير على قيام نظام سياسي يكفل الحرية والمساواة ويحقق العدالة⁴. إن تحقيق النظام الاجتماعي الجديد من وجهة نظر الصينيين القدماء يتم من خلال تنظيم أسري تلعب فيه المرأة دورا يتحدد بالعمل على استمرار الأسرة واستقرارها باعتبارها الخلية الأولى التي نشأت المجتمعات فيها، ولابد من استقرارها ليتحقق استقرار المجتمع واستمراره، ولا يتعدى الدور المنشود للمرأة في هذا المجال وجوب خضوعها للرجل، وطاعة الزوجة لزوجها وعدم مخالفته في أي أمر كان وعلى أي مستوى سواء كان شخصيا أم اجتماعيا يخص الأسرة نفسها، أو يتعلق بأمر من أمور علاقتها بالمجتمع⁵.

3. المرأة عند اليونانيين

لقد تمتعت المرأة بميزة رفيعة في عصر البطولة عند اليونانيين، مثلها وضع آلهة الأساطير في تلك الحقبة، لكنها ما لبثت أن تدهورت نتيجة لسيطرة الرجل، ومنافسة الرقيقات، خاصة مع ظهور العائلة الوحدانية ما بعد عصر البطولة وهو الشكل الذي اتخذته العائلة في فترة الانتقال من مراحل البربرية كتبشير لابتداء الحضارة، يقوم على سيادة الرجل، وغايته الصريحة تحديد أبوة الأبناء بشكل تام حتى يرثوا آبائهم باعتبارهم الورثة الطبيعيين، وتتميز هذه العائلة بأن حل الرباط الروحي بين الزوجين لم يعد مرتبطا برضا الطرفين بل انفرد الرجل بهذا الحق، فأصبحت المرأة بالنسبة لزوجها مجرد أم لورثته الشرعية، وحامية منزلته الأولى، كما أبرز بقاء الرقيقات اللواتي يرجعن جسما وروحا إلى الرجل أن الوحدانية للمرأة فقط وليست للرجل⁶، تجدر الإشارة إلى أنه يمكن التمييز عند اليونانيين المتأخرين بين الدورين واليونانيين، فالنساء الدورين (كنساء إسبرطة مثلا) يذكهن الأقدمون باحترام ويعتبرون آثارهن جديرة بالحفظ، بينما كانت الأمور بين اليونانيين (ومنهم سكان أثينا) تختلف تماما، فقد كانت المرأة حتى وإن تعلمت الغزل والنسيج والخياطة وقليلًا من القراءة والكتابة تبقى منعزلة تسكن جزءا خاصا منفصلا من المنزل في الطبقات العليا أو في بناء خلفي لا يسهل وصول الرجل إليه لاسيما الغرباء. ولم تكن المرأة في نظر الرجل الأثيني أكثر من رئيسة للخدم عليها الإنجاب وتحقيق متعة الرجل وإسعاده، وكان للزوج أعباءه الرياضية وشؤون العامة التي لم تكن المرأة تشارك في بعضها أو تعارض في بعضها الآخر كافتناء الرقيقات مثلا.

إن ما تميز به مفكرو اليونان الأوائل أنهم كتبوا بعضا من البحوث الخاصة بالمرأة إضافة إلى بحوثهم في العائلة، وبالاقتصاد العائلي، والتدبير المنزلي وعالجوا مجموعة من الظواهر الاجتماعية الأسرية خاصة تلك المتعلقة بالحقوق والواجبات المترتبة على الرجل والمرأة في حياتها العائلية، إلا أن بعضهم أقر بالسيطرة الأبوية القائمة على مبدأ السيادة الزوجية والمشاركة الوحدانية، فنظرية أفلاطون حول المرأة تقوم على مبدأ المساواة بين الجنسين في الحقوق والواجبات، وجميع الالتزامات المدنية، وتقلد الوظائف الاجتماعية العامة معتمدا في ذلك على مقولة أساسية تتمثل في أنه لا فرق بين المرأة والرجل، وحتى وإن وجد فإنه ليس جوهريا بمعنى أنه لا يتناول طبيعتها في ذاتها من حيث الملكات والمقومات الأساسية، لكنه اختلاف عرضي يرتبط بأداء الوظيفة الجنسية، لذلك يجب على الدولة أن تسوي بينهما في الحقوق والواجبات، كما يجب أن يتلقى كل منهما العلم والفلسفة، إن موقف أفلاطون من المرأة كان ناجما عن ملاحظته لاختطاط مكانة المرأة في المجتمع وخضوعها لسلطة الرجل، محرومة من جميع حقوقها، خاصة وأن اليونانيين يعتبرونها سبب الأوجاع والآلام للعالم كله بسبب ما ذكرت الأساطير اليونانية أن الناس كانوا يعيشون في أفراح، ولا يعرفون معنى الألم والحزن، لكن ما حدث أن الآلهة أودعت أحد الناس صندوقا وأمرته ألا يفتحه، وكان لهذا الرجل زوجة تسمى "باندورا" ما زالت تعزي زوجها

بفتح الصندوق حتى استحباب لغوايتها، فانطلقت منه الحشرات، ومنذ ذلك حين أصيب الناس بالآلام والأحزان، فهي سبب الكوارث التي حلت بالبشرية كلها.⁷ لذلك كان بعض اليونانيون في فترة من الفترات يضعون القفل على فم المرأة حتى لا تتكلم إلا بإذن ولي أمرها الذي يملك مفتاح القفل، يفتحه ويسده متى شاء⁸ لذا نجد أفلاطون قد دعا إلى مساواتها مع الرجل سواء بسواء ليرفع من قدرتها ومكانتها، أما أرسطو فقد تحدت نظرتة للمرأة من خلال دراسته للأسرة، باعتبارها أول حلية اجتماعية، وهي أول اجتماع تدعو إليه الطبيعة، وذلك تابع عن وجود ضرورة أولية تؤدي إلى اجتماع كائنين لا غنى لأحدهما عن

الآخر، كما أن الحياة الإنسانية لا يمكن أن تتحقق على وجه صحيح إلا في نطاق الأسرة، وتشمل العناصر الداخلة في تكوين الأسرة.

لقد وضع أرسطو الرجل على رأس الأسرة لأن الطبيعة وهبته القوة الجسمانية والعقل الكامل، فهو دعامة الأسرة وترجع إليه كل أعمالها. أما المرأة في نظره فغنها أقل عقلا منه، وأقل استعدادا والطبيعة لم تهيئها لمشاركة الرجل في الجندية وفي الإدارة والحكم، لذلك يجب أن تقتصر وظيفتها الرئيسة على العناية بتربية الأولاد والأمور المنزلية، على أن يتم ذلك بإشراف الرجل وتوجيهه، أما الأرقام فوظيفتهم تحصيل الأوقات الضرورية لقوام الأسرة، والقيام بالصعب من الأعمال، مع إمكانية الإسهام في مساعدة المرأة للقيام بأعبائها المنزلية فهم بذلك أدوات وآليات الحياة.⁹

4. المرأة عند الرومان

عندما نعبّر التاريخ البشري نجد أن المرأة الرومانية كانت تحتل مكانة محترمة، ففي الأساطير الغابرة قام الرومان بإنشاء معبد لأم الأرباب الكبيرة استجابة لنسبوات العرافين، لذلك توجهوا إلى تدريجيا للبحث عن الإلهة "سييليا" التي يعتبرونها أم الآلهة والأم الكبرى وأم القمح وسيدة القوى الكاملة وملكة الجميع التي يخضع العالم لسلطانها بأنها أصل الأشياء¹⁰، إلا أن روما لم تبق كذلك فقد تحولت إلى قلعة النظام البطريكي في الغرب، فأصبح الأب صاحب السلطة الوحيد، وأعطى القانون الروماني الحق للرجل في هجر زوجته، وانكار أبنائها وحتى بيعهم، كما يعترف للرجل بحقه في أن يستولي على كل ممتلكات زوجته ومعاقبتها، واستمرت العائلة الوحداية بشكلها التقليدي، الذي يحفظ للرجل وحده حق السيطرة والنفوذ وخضوع المرأة لسلطة رب الأسرة التي لا حد لها، إلى أن جاء "جو ستيانيان" الذي قرر أن كل ما تكسبه البنت بسبب عملها أو عن طريق شخص آخر غير رب أسرتها يعتبر ملكا لها، أما الأمور التي يعطيها رب الأسرة فتظل ملكا له، على أنها وإن فتحت حق التملك فإنها لا تستطيع التصرف فيها دون موافقة رب الأسرة، إن وضع المرأة عند الرومان كان بين مد وجزر، فحتى شبه الحقوق التي تمنح لها كانت تحرم منها في أغلب الأحيان، وظلت طوال تاريخها لعبة يتلاعب بها الرجل كما يشاء، وحتى محاولات التمدين والتطور التي عاشتها الحضارة الرومانية كانت المرأة لا تعني شيئا غير أداة لا يلجأ إليها عند الشهوات.

إن المرأة الرومانية لم تكن تتمتع بكامل شخصيتها القانونية لخضوعها لصاحب السلطة عليها الذي يمكنه أن يحدد نشاطها أو أي عمل تقوم به، فالسلطة التي منحتها القوانين الرومانية للرجال يمكن أن نعتبرها من الناحية القانونية سلطة وجاهة لا حماية وتحكم ذاتي من قبل الرجل في كافة المناحي الحياتية للمرأة، بينما تقف المرأة إلى جانبه عاجزة عن القيام بأي عمل دون الرجوع إليه.¹¹

5. المرأة عند الهنود

كانت نظرة الهنود القدامى للمرأة، نظرة احتقار، فهي عندهم خسيصة، نجسة مهانة، لا حقوق ولا كرامة ولا شخصية لها، فهي في المفهوم العقائدي أدنى من الرجل، فعندما صاغ -صنع- المبدع الإلهي الرجل وفرغ منه أراد أن يصوغ المرأة، لكنه تفاجأ بأن مواد الخلق قد نفذت كلها أثناء صياغته للرجل، ولم يبق عنده العناصر الصلبة والمواد الأولية شيء، فأخذ يجمع البقايا المتناثرة والقصاصات

الصغيرة التي بقيت من المواد التي صاغ بها الرجل، فجمع هذه البقايا وصاغ فيها المرأة، فالمرأة خلقت من بقايا الرجل¹²، كما أنها مصدر العار والعناء في الحياة، خلقت لتضليل الرجال، فكان حكماء الهنود يتعاملون مع النساء بحرص شديد¹³، وتبقى المرأة الهندية قاصرة في جميع مراحل حياتها، ففي طفولتها تابعة لوالدها، وبعد الزواج تابعة لزوجها، فإذا مات زوجها تتبع ولدها الأكبر، فإن لم يكن منهم انتقلت الولاية عليها إلى رجال عموميتها فإن لم يكن رجال عمومة انتقلت الولاية إلى الحاكم.

كما لم يكن لها رأي حتى في أهم خصوصيتها، وهو الزواج، فوالد الفتاة الهندية يسلمها لأي رجل يشاء دون استشارتها ودون رضاها، وهي ملزمة بأن تخضع لهذا الزوج لأنه المالك لها. وبلغت إهانة الهنود للفتاة أثناء طمئتها كل مبلغ، ففي أول طمئ للفتاة عند الهندوس تحبس الفتاة في غرفة مظلمة، وتحذر من لمس أي شيء، أو أي شخص، ويحظر عليها استعمال الحليب والزيت واللحم حتى تطهر، وإذا طمئت قبل الزواج تجلب الكوارث لأهل بين والدها.¹⁴

6. المرأة في الديانة اليهودية

رغم أن المرأة كانت متواجدة في الحياة العامة، إلا أن الديانة اليهودية المحرفة تنظر إلى المرأة نظرة دونية، فالتاريخ اليهودي أظهر أن المرأة ملعونة، بل وصفها بأنها مسؤولة عما يقترفه الرجل، ويقوم به من أعمال شريفة، كذلك كانت في مستوى العبيد، ووالدها وزوجتها يتحكمان فيها وبجميع أمورها، بل إن والدها يحق له بيعها وهي طفلة إذا أراد ذلك.¹⁵ إن أساس الديانة اليهودية المحرفة يقوم على سيادة جنس الذكور على جنس الإناث، والأسرة العبرية ليست أبوية فحسب، بل ممتدة أيضا، قوامها الرجل والزوجة أو زوجاته وأولاده وزوجاته، تحت سلطة الأب الذي يتمتع بسلطة مطلقة وبدون حدود في معاقبة الزوجة ومن تحت سلطته، كما له الحق في بيع أولاده لتخفيف متاعهم أو يقدمهم رهنا لدائنه أو قتلهم، وتتجلى سيطرة الرجل في مجمل العلاقات الأسرية في أنه سيد امرأته، وأنه يستطيع خلعهما وأن يتزوج ما يخلو له من النساء، أو الخليلات، لكن على الرجل أن يحترم زوجته الأخرى، لأنها ملكه مثلما يحترم ويدافع عن سائر أملاكه،¹⁶ أما الطلاق فيحق للرجل الطلاق في حالات كالزنا والعقم وغيوب الخلقة والخلق، ولا يحق للمرأة أن تطلب الطلاق مهما كانت عيوب زوجها، حتى لو ثبت عليه الزنا، ولم تكن المرأة المطلقة تتمتع بأي اعتبار، فهي كائن دنس محقر، إن منطلق الفكر اليهودي بالنسبة للمرأة ينطلق من مسؤولية المرأة عن الخطيئة الأولى، والتي جلبت المتاعب للجنس البشري وضرورة تسلط الرجل عليها واستعبادها.

7. المرأة في الديانة المسيحية

تري المسيحية المحرفة أن الزواج بالمرأة دنس يجب الإبتعاد عنه، ورجال الدين الذين لا يتزوجون هو الأطهار، والعزاب أفضل عند الله من المتزوجين، والمرأة حسب الرؤية النصرانية هي مدخل الشيطان إلى نفس الرجل ورددوا ما قاله اليهود بأنها سبب خطيئة آدم، ولهذا يرون أن لا أهلية لها وما لها ملك لزوجها، وفي هذا يقول الفيلسوف الإنجليزي "برناردو" في اللحظة التي تتزوج فيها المرأة تصبح ملكا لزوجها، هي وما تملكه. وكان بولس يعتبر النساء أقل منزلة من الرجال، فهو القائل: "لتصمت نسائكم في الكنائس لأنه ليس مأذونا لهن في الكلام، بل أمرن أن يخضعن للطاعة، فإذا أردن أن يتعلمن شيئا فليسلن رجالهن في المنزل، لأنه من العيب أن تتكلم المرأة في الكنيسة".

إن المرأة لم تحظ لدى أتباع الديانة المسيحية المحرفة بأهمية كبيرة، ولم تلق من الاهتمام والحقوق إلا بالقدر البسيط جدا، بل اعتبرت أنها المسؤولة عن انهيار المجتمع وانهيار النظم الاجتماعية لأي مجتمع. أما وظيفتها الأساسية فهي خدمة الرجل والعمل داخل المنزل، وليس لها الحق في المشاركة خارج نطاق منزلها، إذ أن تلك المشاركة مقتصرة على الرجال فقط، هذه المكانة المتهنة، والدور

الاجتماعي الهاشمي عند أتباع الديانة المسيحية في الماضي، كانت بخلاف تعاليم المسيحية الحقبة التي أعطت كل ذي حق حقه، سواء أكان رجل أم امرأة، كما أعطت المرأة أيضاً حق المشاركة في الحياة العامة في المجتمع، بل والمشاركة في نشر الدعوة المسيحية وإسهامها فيها بالجهد والمال.¹⁷

8. المرأة في المجتمع الجاهلي

اعتمدت مرحلة التاريخ العربي قبل ظهور الإسلام على بعض الأنشطة، كالصيد والرعي والتجارة، ولم تكن الأوضاع الاجتماعية في تلك المرحلة مستقرة، فلم يشكل العرب في تلك العصور وحدة سياسية اجتماعية تنظمهم، بل كانت التقسيمات السياسية حافزاً لنشوء مجتمعات متباينة تضم طبقات اجتماعية وفتات دينية متميزة، ونتيجة لهذا التمايز كان للمرأة وجود يختلف من فترة لأخرى، ومن فئة لأخرى، ومن وحدة لأخرى، ولذلك فلمعرفة واقع المرأة في تلك المرحلة لابد من الأخذ بعين الاعتبار قوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية للمجتمع الذي كانت المرأة تعيش فيه¹⁸

لقد عانت المرأة من نظرة دونية لقدراتها وإمكاناتها ودورها في المجتمع، بالرغم من الإسهامات الكثيرة التي كانت تشارك بها في مختلف مناحي الحياة، حيث شاركت في الحياة الاقتصادية من خلال الصناعات التي قدمتها للمجتمع وطلبت الرزق من ورائها، كما شاركت المرأة في ميدان التجارة بفعالية كبيرة، بالإضافة إلى ذلك لعبت المرأة دوراً هاماً في العلاقات الإنسانية بين القبائل سواء في توثيق السلام أو في تغذية الحروب والغزوات، كما شاركن في الأمور العسكرية -كتضميد الجراح- وعملن في التحكيم بين المتخاصمين وفي إيجاد أحكام سليمة وجديدة للمجتمع. ورغم هذا الدور الفاعل والإيجابي الذي لعبته المرأة في الميدان السياسي، فإن سيادة الرجل للمرأة أشد استغلالاً، مما أدى إلى سيطرته عليها والتصرف بها وبجهاها كما يريد¹⁹، فالمرأة لم تكن تملك في اقتصاد ذلك المجتمع إلا طاقاتها الحيوية تبذلها عملاً وجهداً. بمردود ضعيف شأنها بذلك شأن العامل الذي لا يملك إلا جهده يبيعه لصاحب العمل مال رأس المال فيستغله كما يريد.¹ إن الفعالية الكبيرة التي مارستها المرأة في مرحلة التاريخ العربي قبل الإسلام اعتمدت في الغالب على عملها فقط دون ملكيتها لوسائل الإنتاج، لذلك لم تنل حظها من الاعتراف بحقوقها وقدراتها، بل كثيراً ما كانت حياتها ومكانتها تتحدد بالإهتمام بشؤون المنزل وتربيته، إضافة إلى انجذاب الأطفال باعتباره من الأعمال الملتصقة بطبيعتها وتكوينها، والتي يمكن أن تسهم في إعطائها مكانة خاصة إذا أنجبت ذكوراً نظراً بأهميتهم في سعادة الأسرة القبلية. وقد كانت العلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع العربي الجاهلي تستند إلى الفروق التشريحية والفيزيولوجية بينهما، فالرجل هو الأقوى بنية وتفكيراً ونشاطاً، لذلك فهو صاحب السيادة في الأسرة والسلطة العليا في المجتمع، والمرأة منذ طفولتها تغدو بهذه النظرة فتنشأ مؤمنة بسلامة الامتيازات التي يتمتع بها الرجل في نطاق الأسرة والمجتمع. فالمرأة رغم سنّها كانت المحور الأساسي الذي يدور الرجل حوله ويتحرك، إلا أنه كان في الغالب محورياً يدار ولا يتحرك بنفسه، فالحركة الأولى في بناء الأسرة كانت بيد الرجل سيد الزوجة ومالكها وواضع أعرف الأسرة، ومقرر تقاليدها وعاداتها، وهو المرجع الأعلى في العلاقات بين أفرادها معتمداً في ذلك على القوة الاقتصادية التي يملكها والقوة الاجتماعية المنبثقة في أساسها من اعتبارات قوته الجسدية والعسكرية، وما وهبته الطبيعة من قوة جسدية، جعلت الكثير من الباحثين يقرون أن الحياة الزوجية في المجتمع العربي الجاهلي لم تكن قائمة على الاعتراف بحقوق المرأة كزوجة وكأم، بل كانت موضع اضطهاد، غير أنها في الكثير من الأحيان تضطلع بدور خفي، إذ أنها في الواقع الجاذبة والدافعة في بناء الأسرة وتكوينها عن طريق بناء الرجل ذاته والتأثير الخفي فيه.²⁰ وبشكل عام لم يكن للمرأة في المجتمع العربي القديم صورة واحدة، بل كان لها ثلاث صور على الأقل، لكل منها سماتها

الخاصة ومدى انتشارها - مع اشتراكهن بمميزات مشتركة ضمن وجودهن الاجتماعي، فهناك الفئة التي كانت تعيش غارقة في وسطها الأسري، وتضم أكثرية المجتمع النسائي الجاهلي، وتعتمد على التمويل الإقتصادي للرجل، وهي ملك لأولادها وأسرته وبيتها، تعيش منغلقة على المجتمع الخارجي محجوبة في بيتها، تحت ضغط الرجل واستغراق أعمال المنزل كل وقتها، وهي في هذا الباب وبصورة عامة حاذقة في تدبير شؤون بيتها وسيدة العمل فيه، بل إنها في المجتمع البدوي هي سيدة الإنتاج الصناعي ذوي الطابع المتري الإكتفائي.²¹

وهناك صور للمرأة العاملة المرتزقة، وهي قليلة العدد نسبياً، تبحث عن العمل ليكون مجلبة للرزق وسد الحاجة وعونها على الزمن، ودفعاً لسؤال اللثيم، وكان يدفعها للعمل عدم وجود رجل يعولها وأولادها، فكانت تجابه الحياة العامة بكل قضاياها ومشكلاتها. أما الصورة الثالثة فتمثلها المرأة البرزة، وهي المرأة المتميزة العاقلة والحكيمة والقائدة التي عاشت لمجتمعها الأسري الصغر، وللمجتمع قومها الأكبر في آن واحد، وقفت نداً إلى جانب الرجل سواء كان أباً أم زوجاً أو ابناً أو أخاً تجاذبه سياسة الأسرة والعشيرة ولاية الأمر، وجد للعمل وشؤون الحياة كما كان لها في نظام الحياة الاجتماعية الرأي الأول في خطبتها، وكان طلاقها بيدها وترفض وأد البنات بإصرار، وتعمل في نطاق بيتها شتى أنواع العمل.

كما أنها تخوض الحروب والغزوات إلى جانب الرجال وتجاهد بالسيوف وتواسي الجراح وتذود عن كرامتها وكرام قومها وتثور على الطغيان وتعتر بذاتها، على الرغم من بعض الصفات الشخصية المميزة للمرأة العربية في الجاهلية فقد كانت للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي عاشتها المرأة في مرحلة ما قبل ظهور الإسلام أثر كبير فيما وصل إليه واقعها، حيث أصبحت مهينة الجناح ينظر إليها وكأنها شر وافد إلى الحياة لا تجلب إلا العار لأسرتها ولا يرجى من ورائها أي خير، حتى وصل الحال بأنه لا بد من التخلص من هذا الوباء، حيث انتشرت عادة وأد البنات في صغرهن، أما في الكبر فكانت المرأة تابعة للرجل منسوبة إليه ومسيرة بأمره، وكان يمثلها في مصالحها، ولم تكن الحياة الزوجية قائمة بينهما على اعتراف بحقوق أو شركة متبادلة، وكانت الزوجة موضع الاضطهاد والخيف، وكان الطلاق سيفاً مسلطاً على حياتها بغيد حد، ولأتفه الأسباب، تفقد معه حقوقها كلها.²²

9. المرأة في الإسلام

تظهر دراسة أصول الشريعة الإسلامية المكانة العالية التي حفظتها للمرأة والدور الهام أكدته لها في حياة المجتمع، بعدما وصل إليه واقعها من هبوط قبل ظهور الإسلام، وتوضح دراسات وبحوث عديدة مكانة المرأة في الأسرة والمجتمع استناداً إلى أحكام الإسلام.²³

إن أول ما صنعه الإسلام تعزيزاً لكرامة الأنثى أنه بين فساد موقف الرجل من كرهه لولادة الأنثى وفرحه بولادة الذكر، وفي هذا نصت الآية الكريمة: "وإذا بشر أحداكم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به يمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون".²⁴

إن التشريع الإسلامي بلور شخصية المرأة بشكل جديد، جعلها تشعر بكيانها وشخصيتها، وأن له حقوقاً متساوية كالرجل تطالب بها، وتدافع عنها، وواجبات لا بد أن تتحمل كافة المسؤوليات والتبعيات الناجمة عنها، ومن الآيات القرآنية المؤكدة إلى نظرة المساواة في الإسلام بين الرجل والمرأة، قوله تعالى: "من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحبيبه حياة طيبة ولنجزينهم

أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون" ²⁵، وقوله تعالى: "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم" ²⁶، فتأكيد التشريع الإسلامي على تلك الصورة لمكانة المرأة ودورها في الأسرة والمجتمع مرتبط بنظرته للمرأة كإنسان مساو للرجل، حيث أكد على أهمية القضاء على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانية، إذ ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها..." ²⁷، فالمرأة والرجل من أصل واحد لا تفاوت بينهما، ولا بد من دفع المرأة إلى حيث يجب أن يكون شرط النفس الواحدة. كما كفل الإسلام تحقيق العدالة الاجتماعية في المساواة بين الزوجين وجعل شخصية الزوجة تتعادل من شخصية الزوج، وتوزعت بينهما مسؤوليات رعاية الأسرة، بما يتفق مع طبيعة كل منهما والنظام الاجتماعي.

لقد ضمن الإسلام للمرأة حقوقها ووفر لها كل الضمانات بروح إنسانية خالصة، إذ حارب ظاهرة وأد البنات من خلال الحث على الرحمة والعدل في حق البنات: "وإذا الموءودة سئلت، بأي ذنب قتلت" ²⁸ وبتحريم القتل عامة والنهي عن قتل الأولاد خشية الفقر والإملاق. كما حفظ الإسلام للمرأة أهلية تامة وحقا كاملا في جميع التصرفات المدنية والاقتصادية والشخصية مثلها مثل الرجل وتساوى بينهما دينيا وروحيا، منحها الحقوق العامة والخاصة التي تكفل لها حرية التصرف في حيازة المال والانتفاع به والتصرف فيه.

وحيثما تناول الإسلام دور المرأة والرجل، جعل المرأة شريكة فيه للرجل، لا تفاضل بينهما، إلا بما تكسبه كل نفس منهما، ومن خلال العمل الصالح والخصال الطيبة، وفي هذا يقول الله عز وجل في الآية الكريمة: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء..." ²⁹

لقد جاء الإسلام بقيم جديدة في معاملة المرأة، حيث أولى عناية فائقة إلى ضرورة عدم التفرقة بينهما وبين الرجل في القيم الإنسانية، لتكون عضوا نافعا في المجتمع، كما أعطاهما مكانة لم يرفعها إليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع، ومن مظاهر هذه المكانة العالية التي حفظتها الشريعة الإسلامية للمرأة:

أ. **المركز الاجتماعي** لقد أقر الإسلام على أن الرجل والمرأة، من حيث النشأة وأتمهما متساويان في الحقوق والواجبات، ولقد نزلت العديد من الآيات القرآنية وتوارثت العديد من الأحاديث النبوية الشريفة تقرر هذه المساواة، فرفع بذلك الإسلام من شأن المرأة وكون شخصيتها، وقرر حريتها وكرامتها كابنة وزوجة وأم وامرأة. ³⁰ كذلك ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة من حيث المسؤولية والجزاء والعقاب من خلال قوله تعالى في سورة آل عمران: "فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى بعضكم من بعض..." ³¹

ب. **المركز الشرعي** لقد نظم الإسلام العلاقات الزوجية، بحيث حفظ للمرأة شخصيتها وكرامتها، حيث أرى أن الغاية من الزواج هي إنشاء كيان عائلي يكفل للزوجين وأولادهما حياة كريمة وندد بالزواج الطي لا يكفل الاستقرار والاستمرار المادي والنفسي، ولا يتمكن من التغلب على نزوات الانحراف، ودوافع الجنوح عن خط السير في سبيل تحقيق الإنسانية. كما عني بحماية المرأة وتنظيم مركزها في الأسرة، فحفظ لها حقوقها في حال وقوع الطلاق بينهما، مشيرا إلى كراهية هذا الفعل، فكان إن ساوت في الحديث النبوي الشريف أعمال المرأة أمّا وزوجة في الطاعة أعمال الرجال المجاهدين في سبيل الله، بل كان حق الوالدة في الطاعة

أكبر من الرجل، فقد روى البخاري ومسلم أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي؟ فقال: أمك. قال ثم من؟ قال أمك. قال ثم من؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال أبوك". وفي حديث آخر للنبي صلى الله عليه وسلم "الجنة تحت أقدام الأمهات".³²

ت. المركز الاقتصادي لقد اعترف الإسلام بشخصية المرأة المستقلة عن زوجها ووالديها متمتعة بجميع الحقوق الشخصية والمادية التي يتمتع بها الرجال، محتفظة بكل ما تملكه من أموال، ولها مطلق الحرية في التصرف فيها وإدارتها بالطريقة التي تراها، ولم يحرم الإسلام المرأة من الاستغلال بأي عمل شريف يصون كرامتها ويحفظ عليها حياتها³³، كما أقر الإسلام بعدم أحقية الزوج أن يأخذ شيئاً من مالها أو يتصرف في أموالها إلا إذا أذنت له بذلك.

من جهة أخرى فإن الإسلام لم يضع على كاهلها أي عبء من الأعباء الاقتصادية لمعيشتها هي نفسها، فنفتتها واجبة على أصولها وإن كانت على عصمة زوج كانت نفقتها واجبة عليه.

لقد رفع الإسلام من قدر المرأة وأعز مكانتها في المجتمع ولم ييخسها حقها وبوأها مكانتها اللاتئة إلى جانب الرجل في كافة المجالات، ورسم الخطوط العامة التي يشترك الرجل والمرأة فيها، وتخلّى منها أن وضع المرأة بوجه عام هو وضع الرجل، وأن كلا الوضعين يكونان الوضع العام للحياة في أعمالها ومقتضياتها ومسؤولياتها وتبعاتها، وبذلك فالإسلام قضى على ما كان يتمتع به رب الأسرة من الجبروت المطلق وحفظ لكل من الزوجين مركزه في الأسرة بكل ما له من حقوق وسلطان وما عليه من تبعات ومسؤوليات.

الهوامش

- ¹ مصطفى الخشاب: علم الاجتماع ومدرسه، تاريخ التفكير الاجتماعي وتطوره، مرجع سابق، ص 11
- ² هيفاء فوزي الكبرة: المرأة والتحول الاجتماعي والاقتصادي، مرجع سابق، ص 27.
- ³ حلمي عبد الجواد، يوسف ساري: الأسرة قديماً وحديثاً، مطبعة دار التعاون، ص 9، 10.
- ⁴ مصطفى الخشاب: دراسات في علم الاجتماع العائلي، مرجع سابق، ص 14.
- ⁵ -هيفاء فوزي الكبرة: مرجع سابق، ص 28-29.
- ⁶ المرجع السابق، ص 29.
- ⁷ فريدريك أنجلز: أصل العائلة، ترجمة أديب يوسف، مطبعة الرشيد، بغداد، ص 72-74.
- ⁸ محمود عبد الحميد: حقوق المرأة بين الإسلام والديانات الأخرى، مكتب مبدولي، القاهرة، ط1، 1990، ص 19.
- ⁹ مصطفى الخشاب: علم الاجتماع ومدرسه، مرجع سابق، ص 46، 47.
- ¹⁰ الحيدري إبراهيم: النظام الأبوي واشكالية الجنس عند العرب، دار الساق، بيروت، ط1، 2003، ص 161.
- ¹¹ باسمه كمال: تطور المرأة عبر التاريخ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، 1981، ص 38.
- ¹² محمد عبد السلام أبو النيل: حقوق المرأة في الإسلام، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، مصر، الطبعة 2، (2002) ص 17.
- ¹³ المرجع السابق، نفس الصفحة.
- ¹⁴ محمد الصادق عفيفي: المرأة وحقوقها في الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2006، ص 11.
- ¹⁵ أحمد عبد العزيز الحصين: المرأة العربية ومكانتها في الإسلام، مطابع المختار الإسلامية، القصيم، المملكة العربية السعودية، 1981، ص 15.
- ¹⁶ جلال غربول السناد: تطور السلطة العربية، نموذج دير الزور سوريا، رسالة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة دمشق، 1994/1995، ص 164.
- ¹⁷ - محمود عبد السميع شعلان: نظام الأسرة بين المسيحية والإسلام دراسة مقارنة، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، 1983، الجزء الأول، ص 81.

- ¹⁸ هيفاء فوزي الكبرة: مرجع سابق، ص 32.
- ¹⁹ المرجع السابق، ص 33.
- ²⁰ زهير حطب: تطور بني الأسرة العربية والجذور التاريخية والاجتماعية لقضاياها المعاصرة، معهد الإنماء العربي، فرع لبنان، الطبعة 2، 1980، ص 13-60، ص 120-122
- ²¹ ليلى الصباغ: المرأة في التاريخ العربي (في تاريخ العرب قبل الإسلام)، وزارة الثقافة الجمهورية السورية، 1975، ص 466-469.
- ²² زينب رضوان: مكانة المرأة في التشريع الإسلامي، المجلة الاجتماعية التونسية، مركز البحوث الاجتماعية والجناينة، العددان 1، 3 مصر، 1977، ص 268-281.
- ²³ محمد أحمد محمد بيومي، عفاف العليم ناصر: علم الاجتماع العائلي -دراسة التغيرات في الأسرة العربية-، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، د ط، 2005، ص 39.
- ²⁴ القرآن الكريم: سورة النحل، الآيتين 58-59.
- ²⁵ القرآن الكريم: سورة النحل، الآية 97.
- ²⁶ القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية 228.
- ²⁷ القرآن الكريم: سورة الأعراف، الآية 189.
- ²⁸ القرآن الكريم: سورة التكويد، الآيتان 8-9.
- ²⁹ القرآن الكريم: سورة النساء، الآية 01.
- ³⁰ محمد أحمد محمد بيومي، عفاف عبد العليم ناصر: مرجع سابق، ص 43.
- ³¹ القرآن الكريم: سورة آل عمران، الآية 195.
- ³² عبد الرحمان الصابوني: نظام الأسرة ومشكلاتها في ضوء الإسلام، دار الفكر، د.ت، د.ط، ص 128.
- ³³ محمد احمد محمد بيومي، عفاف عبد العليم ناصر: مرجع سابق ص 47.